فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء

أربع وعشرون ساعة من حياة عريضة

الشيخ/ محمد الغزالي

لنتأمل في هذه الصورة، صورة يوم واحد من حياة نبي الإسلام. لقد صحا من نومه قبل الفجر بيقين، وظلمةُ الليل لا تزال مخيمة على كل شيء، إنه يتحرك مع طلائع الصبح المقبل قائلا: «الحمد لله الذي ردَّ إليَّ روحي، وعافاني في جسدي، وأذن لي بذكره»(١). انظر كيف يستقبل الحياةَ بترحابٍ وتفاؤلٍ: «الحمد لله الذي ردَّ إليَّ روحي». إن العمر الذي ملكناه نعمةٌ نحمد الله عليها، وينبغي أن نحسن استغلالها. إن الحياة فرصة النجاح لمن أراد النجاح؛ ولذلك امتنَّ الله بالشروق والغروب على عباده:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾

(غافر: ٦١)

وعظمة الحياة في العافية. ما أجمل أن يكون المرءُ سليم البدن! تنهض أجهزتُه وعضلاتُه بوظائفها كلها دون إعياء أو ملال. إن المسلم عندئذ ينطلق في كل أفق ليؤدي واجباته باقتدار ورغبة. وذلك سرُّ حمد الله على العافية المتاحة. ونقف طويلا عند قول الرسول: «وأذن لي بذكره». أرأيت أدب العبودية في شمائل العابد الرقيق؟ إنَّ منحه يومًا جديدًا إيذانٌ له باستئناف العبادة من مطلع الفجر. ويبدأ العبدُ الشكورُ بذكر ربه بكلمات يقطر اليقين والحب من كل حرف فيها، يقولها في الصباح والمساء على سواء: «اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي وآمِنْ روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني، وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أُغتال من تحتي» (رواه أحمد والنسائي وابن ماجه). قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ لي: «قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: اللهم عالم الغيب والشهادة، فاطر السماوات والأرض، ربَّ كل شيء ومليكه، أشهد ألَّا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي، وشر الشيطان وشركه»(٢). وفي رواية: «وأن أقترف على نفسي سوءًا، أو أجره إلى مسلم» (الترمذي). مع طلائع اليوم المقبل يقول الرسول هو وأصحابه: «أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص،

(١) رواه بنحوه أحمد والترمذي والنسائي.

(٢) رواه أبو داود والترمذي بنحوه.

وعلى دين نبينا محمد، وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفًا، وما كان من المشركين» (رواه أحمد وابن أبي شيبة). وإقرار الأصحاب والأتباع أنهم على دين نبيهم محمد ظاهر، فما معنى أن يقول ذلك النبيُّ نفسه؟ لقد تكرر في أدعية كثيرة أن يشهد الرسول لنفسه بالنبوة، أو بأن محمدًا حقٌّ. وأرى أن ذلك لمقاصد حسنة منها: أنه أولُ ملتزم بتنفيذ ما جاء به، فكثير من أهل الدين ورؤسائه يحسبون الدين بلاغًا للآخرين وتكليفًا، أمَّا هم ففوق المساءلة به. ومنها: مراغمة الكفار والمنكرين الشانئين، وجعل ذلك حقيقةً لا تنال منها الشبهات والأوهام.

ومنها استشعار نعمة الله على صاحب الرسالة، وإبراز الرضا والسعادة بها شكرًا لله الذي اصطفى. وقد كان القلبُ الشريفُ يَجيش بمشاعر التقدير والإعظام لفضل الله منذ يصبح، ويترجم عن ذلك بكلمات رائقة: «اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد، ولك الشكر» (رواه أبو داود). «اللهم إني أصبحت منك في نعمة وعافية وستر، فأتمم نعمتك عليَّ وعافيتك، وسترك في الدنيا والآخرة» (عمل اليوم والليلة لابن السني). وروى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من رجلٍ ينتبه من نومه فيقول: الحمد لله الذي خلق النوم واليقظة، الحمد لله الذي بعثني سالمًا سويًا، أشهد أن الله يحيي الموتى، وهو على كل شيء قدير.. إلا قال الله تعالى: صدق عبدي» (عمل اليوم والليلة لابن السني). وجميل أن يُثني المرءُ على مالك الملك، فيستمع الله إلى الثناء المهدى، ويقبله بالتصديق، ونسبة القائل إلى عبادته، يقول عنه: صدق عبدي. وعن أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أصبح أحدكم فليقل: أصبحنا وأصبح الملك لله رب العالمين، اللهم إني أسألك خير هذا اليوم، فتحه ونصره ونوره وبركته وهداه، وأعوذ بك من شر ما فيه، وشر ما بعده؛ ثم إذا أمسى فليقل مثل ذلك» (رواه أبو داود). إن الناس يعيشون داخل كهف معتم من همومهم الحقيقية، أو المتخيلة. وإنه لمحزن أن عقولًا ذكيةً لا تَرى أبعد من جدران هذا الكهف، وأن قلوبًا فياضةً بالأسى لا تحس إلا ظلمته وضيقه. إن الرسول العارف بربه يستنكر هذا الانقطاع المخزي فيقول: «ما من صباح يصبح العباد إلا مناد ينادي: سبحان الملك القدوس»، وفي رواية: «إلا صرخ صارخ: أيها الخلائق سبِّحوا الملك القدوس» (المنتخب من مسند عبد بن حميد).

أكاد أقول: إن فؤاد محمد وحده، وهو الذي أصاخ إلى صوت الصارخ المهيب بالبشر أن يمزقوا حُجب الغفلة، وأن يتوبوا إلى الملك القدوس. وافتنانه ﷺ في التذكير هو أثر استغراقه في الذكر، ورؤيته لذي الجلال. وجمهور الفقهاء لا يُلزم الأمة بترديد الأذكار والأدعية التي نقلناها وننقلها هنا. إن ترديدها مستحب وحسب، وهذا صحيح. بَيْد أني أرى طول التأمل في هذه الأذكار والضراعات لا بد منه حين يعتلّ القلب، وتضعف بالله علاقته، فإن أثرها قوي في تعريف المرء بربه، وتبصيره بمعاني الأسماء الحسنى. إن الإيمان الغامض قليل الجدوى، والإيمان الفاتر أعجز أن يهيمن على السلوك، أو يكبح الهوى. والواقع أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يحتلوا في الإيمان مكان القمة، ولم يغيروا التاريخ الإنساني، ويقيموا حكمًا مكان حكم، وأخلاقًا مكان أخلاق، إلا لقربهم من حياة الرسول، واقتباسهم من سناه، وسريان الإخلاص من قلبه إلى قلوبهم، وحب الله من فؤاده إلى أفئدتهم. هذه طباع الناس، ربما هاج أشواقهم الهامدة شوق حار، على ما قيل:

وذو الشوق القديم وإن تسلى
مشوق حين يلقى العاشقينا

وأرى أن الاستماع إلى النبي ﷺ وهو يدعو، واستبطان عواطفه وهو يناجي يُشعل البصائرَ المنطفئة، ويدفعها دفعًا إلى الإقبال على الله. ولْيكن هذا اللونُ من الأدعية نافلة، فهناك قَدرٌ مفروض من الاتصال بالله يتصل بالمسجد، والصلوات المكتوبات على كل مسلم. إنه خلال أربع وعشرين ساعة لا بد من الوقوف بين يدي الله خمس مرات، وقد تفترض الجماعة أو تكون سنة مؤكدة، ومكانة المسجد في المجتمع الإسلامي رفيعة، وسوف يستغرب الحديث عنها أناس أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات.

مع التباس الخيط الأبيض والأسود من الفجر يبدأ الخطو إلى المسجد، وإغراءً لذلك يقول الرسول الكريم: «بشر المشائين إلى المساجد في ظلم الليل بالنور التام يوم القيامة»[٣].

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾

(الحديد: ١٢)

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ﴾

(التحريم: ٨)

وفي المشي إلى المساجد لحضور الجماعات ورد في الأثر[٤] أنه: «ما يرفع الإنسانُ قدمًا ويضع أخرى، إلا كتبت له حسنة، ومُحيت عنه سيئة، ورفعت له درجة». وروى ابن عباس أن النبي ﷺ خرج إلى الصلاة بعد سماع الأذان وهو يقول: «اللهم اجعل في قلبي نورا وفي لساني نورًا واجعل في سمعي نورًا واجعل في بصري نورًا، واجعل من خلفي نورًا ومن أمامي نورًا، اللهم أعطني نورًا» (رواه مسلم). وقد أعطاه الله ما سأل، فكان داعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا! وليت شعري ما تكون الإنسانيةُ لو خلتْ من محمد؟ ومن سريرته النقية وبصيرته الوضَّاءة؟ ومن رسالته التي غسلتْ غسلًا ما علق بعقيدة التوحيد من لوثات الأفاكين والمخرفين. لقد ارتبط بالمسجد، وجعل تعلق القلوب به أملًا حُلْوًا، وأحيا بسيرته دعاءَ أبيه إبراهيم لمَّا قال:

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾

(إبراهيم: ٤٠)

لقد تحولتْ الصلاةُ في سيرته من تكليف تصحبه المعاناةُ إلى سعادة تستريح إليها النفسُ، وهو القائل: «وجُعلت قرة عيني في الصلاة» (رواه أحمد والنسائي). وفي رواية كان إذا دخل المسجدَ يقول: «أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم»، قال: فإذا قال -المسلم- ذلك قال الشيطان: حُفظ مني سائر اليوم (سنن أبي داود). وفي رواية: كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد حمد الله تعالى وسمى وقال: «اللهم اغفر لي وافتح لي أبواب رحمتك». وإذا خرج قال مثل ذلك، وقال: «اللهم افتح لي أبواب فضلك» (عمل اليوم والليلة لابن السني).

ما كان أشدَّ حبه للصلاة! كان إذا سمع المؤذن يقول: «قد قامت الصلاة»، يقول: «أقامها الله وأدامها» (سنن أبي داود). ونحن مأمورون أن نردِّد كلمات الأذان ثم ندعو للرسول. وهنا

(٣) رواه بنحوه أبو داود والترمذي وابن ماجه.

(٤) ذكر المؤلف أنه صح. وفي صحيح البخاري: «إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم خرج إلى المسجد، لا يخرجه إلا الصلاة، لم.. يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة وحط عنه بها خطيئة...».

لطيفة يحسن إثباتها، إننا نقول: «اللهم ربَّ هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة آت محمد الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته» (صحيح البخاري). ربما تساءل سائل: لماذا لم تتجانس الكلمات في التعريف، فيقال: ابعثه المقام المحمود الذي وعدته؟ والجواب: أن النبي فرح بالكلمة التي ذكرها القرآن الكريم وهو يبشر العابد المتهجد بالجائزة التي تنتظره:

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾

(الإسراء: ٧٩)

لقد تشبث بالكلمة المنبئة عن مكانته في الآخرة، وطلب من أمته أن تدعو الرحمن بسوق الجائزة وإنجاز الوعد، ومكافأة قوام الليل الذي تورمت قدماه من طول المناجاة والتلاوة، والركوع والسجود.

إن لمحبة الله في قلب هذا الإنسان المتبتل مكانةً لا يزحمها شيء أبدًا. ولقد ربَّى -عن طريق المحراب- الرجال الذين قادوا الإنسانية بعده ثقافيًا وسياسيًا، فما رأتْ الدنيا حضارةً أشرفَ ولا أتقى مما صنع هؤلاء الربانيون من رجال محمد. ربَّاهم بوحي قريب العهد بربِّه، فإذا الصحراءُ الغفل (٥) تتحول إلى معهد يخرِّج أعرفَ الناس بالقيم والشرائع، وأحقَّ الناس بالإمامة والسياسة. كانت القلوب -وهو يقرأ القرآن- تكاد تطير من الروعة والخشوع، وكان الأصحاب يرمقونه وهو يرثيهم، فما يملأ أحدٌ عينَه منه مهابةً وإعزازًا. ولقد شعر الرسول الخاتم أنه أدى رسالته عندما نظر في مرض الموت إلى المصلين في المسجد، فرآهم مقبلين على الله، خالصين للحق، فاستنار وجهه كأنه صفحة مذهبة. ذاك كل ما يريد!! ما يبغي إلّا أن يَلقى الله بهذا الثمر الحيِّ لجهاده الدءوب. تُرى، هل تعود المساجد يومًا مصانعَ للرجال كما كانت قديمًا؟ إن الأماكن متشابهة ولكن السكان... غير ما نَهوَى!. كأنَّ مجنون ليلى كان يصف مشاعرنا عندما قال:

أما الخيام فإنها كخيامهم
وأرى نساء الحي غير نسائها

❊❊❊

(٥) الغُفْلُ: الأرض الغُفْل التي لم توطأ وليست بها آثار الصحاح. (المجلة)